مقتل

بشـــار بن بُـرد

obeikandl.com

obeikandl.com

ترجمته[١]

هو أبو معاذ: بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء، الشاعر الضرير المشهور، ذكر له أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ستةً وعشرين جداً أسماؤهم أعجمية[٢].

كان بشار قيناً[٣] لرجل من الأزد، فتزوج الرجل امرأة من بني عقيل وساق إليها بشاراً وأمة في صداقها، وكان بشار مكفوفاً فأعتقته العقيلية، وكان بشار يلقب بالمرَعَّث لقوله:

قـــــــــال ريم مـــــرعَّث
ســـــاحـــــر الطرف والنظر
لـــســـت والـــلـــه نـــائـــلـــي
قـلـتُ أو يـغـلـب الـقـــــــدر
أنـــت إن رمـــت وصـــلـــنـــا
فـــانجُ، هل تدرك القـــمـــر

(١) انظر ترجمته متوسعة في : الشعر والشعراء (٢/٧٥٧-٧٦٠)، وطبقات ابن المعتز (٢١-٣١) وتاريخ الطبري (٨/١٨١)، والأغاني (٣/١٢٩-٢٤٥)، ووفيات الأعيان (١/٢٧١-٢٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٧/٢٤)، ولسان الميزان (٢/١٥-١٦)، وغيرها من المراجع . وانظر أيضاً : كتاب إبراهيم المازني (بشار بن برد).
(٢) الأغاني (٣/١٢٩) .
(٣) أي عبداً.

ولد بشار بن برد أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يُشبِّه الأشياء بعضها ببعض في شعره، فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله، فقيل له يوماً وقد أنشد قوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط، ولا شيئاً فيها؟!

فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء؛ فيتوفر حسه، وتذكو قريحته، ثم أنشدهم قوله:

عميتُ جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاض ضياء العين للعلم وافداً
لقلب إذا ما ضيَّع الناس حصَّلا

وشعرٍ كنور الأرض لاءمت بينه
بقولٍ إذا ما أحزن الشعر أسهلا

قال الجاحظ عنه: كان بشار شاعراً خطيباً صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتِّنين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه، وقد قال الشعر في حياة جرير وتعرض له، وحكي عنه أنه قال: هجوتُ جريراً فأعرض عني، ولو هاجاني لكنت أشعر الناس.

كان بشار معدوداً في الشعراء الهجائيين، فكانت تدور بينه وبين كثير من الشعراء النقائض والمهاجاة، حتى استطال في عرض كثير منهم.

لقد اتفق كل من ترجم لبشار بأنه كان من زنادقة الشعراء، وأنه نقلت عنه الأخبار الشنيعة في إعراضه عن الشريعة وتنكبه طريق الهدى.

فمن ذلك: أنه كان يصوب رأي إبليس في تقديم وتفضيل النار على الطين، وذكر ذلك في شعره بقوله:

إبليس خير من أبيكم آدم
فتنبهوا يا معشر الفجار

إبليس من نار وآدم طينة
والأرض لا تسمو سموّ النار

الأرض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النار

وهذا دليل على قلة دينه وسفه رأيه وعقله، أما قلة دينه فبتطاوله على أبي البشر -عليه السلام-، وأما سفاهة عقله فلتفضيله النار على الطين، مع أن العكس هو الصحيح ؛ كما بين ذلك العلماء والمفسرون تعليقاً على إبليس اللعين ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ فليراجع.

ومن الدلائل على رقة دينه أيضاً، أنه قال مرةً:

قاس الهموم تنل بها نُجُحا
والليل إن وراءه صُبُحا

لا يؤيسنَّك من مخبأةٍ
قولٌ تغلظه وإن جَرَحَا

عُسر النساء إلى مياسرةٍ
والصعبُ يُمكن بعد ما جَمَحَا

فسمع المهدي بهذا الشعر، فغضب عليه، فاستقدمه، فلما مثل بين يديه استنشده هذا الشعر فأنشده إياه، وكان المهدي غيوراً فغضب وقال: تلك أمك يا عاض كذا من أمه، أتحض الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبّآت ؟! والله لئن قلتَ بعد هذا بيتاً واحداً في نسيبِ لآتينّ على روحك.

فقال بشار في ذلك:

والله لولا رضا الخليفة ما
أعطيتُ ضيماً عليّ في شجنِ

وربما خير لابن آدم في الكـ
ـره وشق الهوى على البدنِ

فاشرب على ابنة الزمان فما
تلقى زماناً صفا من الأُبَنِ[1]

(١) الأُبن : جمع أبنة : وهي العداوة والحقد، والمراد هنا الكدر.

الله يُعطيك من فواضله
والمرء يُغض عيناً على الكمنِ[١]

قد عشتُ بين الريحان والراح والمـ
ـزهر في ظل مجلس حسنِ[٢]

وقد ملأت البلاد ما بين فغـ
ـفور إلى القيروان فاليمنِ[٣]

ومن مخازي هذا الزنديق: أنه كان يتبع مذهب فرقة من الرافضة يقال لهم (الكاهلية) يزعمون أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وكفر علي -رضي الله عنه- بتركه قتالهم !!، فقيل لبشار: ما تقول في الصحابة ؟ !

فقال: كفروا !

قيل له: فما تقول في علي بن أبي طالب؟!

قال:

وما شر الثلاثة أم عمرٍ
بصاحبك الذي لا تصحبينا

❀ ❀ ❀

(١) الكُمَن: جمع كمنة، وهي جرب وحمرة تبقى في العين من رمد يساء علاجه.
(٢) المزهر: العود الذي يضرب به للهو.
(٣) فغفور على وزن عصفور : لقب كل من ملك الصين، وقيل : بلد بالصين.

obeikandi.com

مقتلـه

كـان بشـار يذهب إلى مـجلس يعـقـوب بن داود وزير المهـدي فـيـمـدحـه لعله يحظى عنده بشيء من المال، ولكن الوزير لم يكن يعطيه مـا تمنى، فمـر يعـقـوب بن داود يومـاً ببـشـار يريد منـزله، فصاح به بشار:

طال الثواء على رسوم المنـزلِ[١]

فقال يعقوب:

فإذا تشاءُ أبا معاذٍ فارحلِ!

وقال بشار له مرةً:

يعـقـوب قـد ورد العـفـاة عـشـيـةً

مـتـعـرضين لسـيـبك المنتـاب[٢]

فـسـقـيـتـهم وحـسـبـتني كـمـونةً

نبـتـت لزارعـهـا بـغـيـر شـراب

مـــهـــلاً لديك فـــإنني ريحـانةٌ

فـاشـمم بأنفك واسـقني بذناب[٣]

---

(١) الثواء : المقام ؛ أي طال وقوفي ببابك.
(٢) المنتاب: الذي يأتي مرة بعد أخرى.
(٣) ذناب: جمع ذنوب وهو الدلو الملأى.

obeikandi.com

طال الثـواء على تنظُّر حـاجـةٍ

شمطت لديك فمن لها بخضاب[١]

تعطي العــزيـرة درّها فــإذا أبت

كـانت مـلامـتـهـا على الحُـلاّب[٢]

أي أنك من المهدي بمنـزلة الحالب من الناقة الغـزيرة التي إذا لم يوصل إلى درهـا فليس ذلك من قبلهـا، إنما هو من منـع الحـالب منها.

فلم يعطف عليه يعقوب ولم يُعطه.

عندهـا انصـرف بشـار إلى البـصـرة مـغضـبـاً، وهجـا يعقـوب بقصائد موجعة كان من أشنعها قوله فيه:

بنـي أمــيــة هبــوا طـال نومكم

إن الخليــفــة يعــقــوب بن داودِ

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا

خليـفــة الله بين الـزقّ والعــودِ

وقال يهجو صالح بن داود أخو يعقوب لما ولي:

همُ حـملوا فـوق المنابـر صـالحـاً

أخـاك فضجت من أخـيك المنابرُ

---

(١) شمطت: تأخر قضاؤها وطال عليها الأمد.

(٢) العزيرة : الكثيرة الدرّ.

فلما قدم المهدي البصرة أعطى عطايا كثيرة، ووصل الشعراء، وذلك كله على يدي يعقوب بن داود، فلم يُعط بشاراً شيئاً من ذلك.

فجاء بشار إلى حلقة يونس النحوي فقال: هل هنا من يُحْتشم؟! فقالوا له: لا، فأنشأ بيتاً يهجو فيه المهدي - سيأتي ذكره إن شاء الله -، فطار بالبيت أحد الجالسين إلى يعقوب بن داود وأبلغه إياه، وكان الوزير قد بلغته أهاجي بشار له، فوجدها فرصة لا تُفوَّت في الانتقام من بشار والسعي في قتله.

فانطلق يعقوب من فوره ودخل على المهدي قائلاً:

يا أمير المؤمنين، إن هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجاك!

فقال المهدي: بأي شيء؟!

فقال: بما لا ينطق به لساني، ولا يتوهمه فكري.

فاستحلفه المهدي أن يقول له ما هجاه به بشار.

فقال: أما لفظاً فلا، ولكني أكتب ذلك.

فكتبه ودفعه إلى المهدي، وهو قول بشار:

خليفةٌ يزني بعماته

يلعب بالدبُّوق والصولجان[١]

(١) لعبة يلعبها الصبيان كالكرة بالصولجان.

أبدلنا الله به غيره

ودسَّ موسى في حرِ الخيزران[١]

فكاد المهدي ينشق غيضاً، وعمد إلى الذهاب إلى البصرة للنظر في أمرها، وما همه غير بشار، فلما بلغ البطيحة[٢] سمع أذاناً في وقت النهار، فقال: انظروا ما هذا الأذان؟! فإذا بشار يؤذن سكران!!

فقال له: يا زنديق، عجبتُ أن يكون هذا غيرك، أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران؟!

فأمر به فضرب بالعصي - وقيل بالسيف - حتى مات، وألقى بجثته في البطيحة، ثم جاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة، فدفن بها.

ومن العجائب أنه لما مات ونعي إلى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنّأ بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا، لما كانوا به من لسانه.

وقال أبو هشام الباهلي في قتل بشار:

يابؤس ميتٍ لم يبكه أحد

أجل ولم يفتقده مفتقدُ

---

(١) الخيزران: جارية من جواري المهدي ، وهي أم ولديه موسى وهارون.
(٢) البطيحة : أرض واسعة بين واسط والبصرة .

لا أم أولاده بكته ولم
يبك عليه لفرقةٍ ولدُ

ولا ابن أختٍ بكى ولا ابن أخٍ
ولا حميم رقت له كبدُ

بل زعموا أن أهله فرحاً
لما أتاهم نعيه سجدوا

وقال أيضاً في ذلك:

قد تبع الأعمى قفا عجردٍ
فأصبحا جارين في دارِ

قالت بقاعُ الأرض لا مرحباً
بروح حماد وبشارِ

تجاورا بعد تنائيهما
ما أبغض الجار إلى الجار

صارا جميعاً في يدي مالكٍ
في النار والكافر في النار

ونحن لا نوافق الشاعر على حكمه بالنار على معين ؛ إلا من حكم عليه الله تعالى أو رسوله ﷺ. والله أعلم.

ومن أجود وأجمل شعر بشار بن برد قصيدته السائرة المشهورة في مدح مروّان بن محمد بن مروان إذ يقول:

obeikandl.com

جـفـا ودُّه فـازورَّ أو ملَّ صـاحـبُـه
وأزرى بـه أن لا يـزالَ يُعـــاتبُـــه

خليليَّ لا تسـتنكرا لوعـةَ الهـوى
ولا سلوةَ المحـزونِ شطتْ حبـائبُه

شـفى النفسَ مـا تلقى بعبـدةَ عـينُهُ
ومـا كـانَ يلقى قلبُـهُ وطبـائبُـه

إذا كـانَ ذوّاقـاً أخـوك من الهـوى
مــوجـهــةً في كلِّ أوبٍ ركـائبُــه

فـخـلِّ له وجـهَ الفـراقِ ولا تكنْ
مطيَّـةَ رحَّـالٍ كـثـيـرٍ مـذاهبُـه

أخـوكَ الذي إن ربتَـه قـالَ إنما
أربتُ وإن عـاتبـتَـهُ لانَ جـانبُـه

إذا كنتَ في كلِّ الذُّنوبِ مُـعـاتبـاً
صديقكَ لم تلقَ الذي لا تُعـاتبُه

فـعشْ واحـداً أو صلْ أخـاكَ فـإنهُ
مُـفـارقُ ذَنبٍ مـرةً ومـجـانبُـهْ

إذا أنتَ لم تشـربْ مـراراً على القَـذى
ظمئتَ، وأيُّ الناسِ تصفو مـشاربُه؟

ولـيلٍ دَجـــوجيٍّ تـنـامُ بـنـاتُـهُ
وأبـنـاؤه مـنْ هـولِـه وربـائبُـــه

حَـمـيتُ به عـيني وعين مطيَّـتي
لذيذَ الكرى حتى تجلتْ عصائبُهْ

ومـاءٍ ترى ريشَ الغَطاط بجـوِّهِ
خـفيٍّ الجـبـا مـا إن تبينُ نصـائبُـهْ

قـريبٍ من التغويرِ ناءٍ عن القُرى
سـقـاني به مـستـعملُ الليلِ دائبُـهْ

حليفُ السُّرى لا يلتـوي بمفـازةٍ
نسـاهُ ولا تعـتـلُّ منهـا حـوالبُـه

أمقُّ غـــريـريٌّ كـــأنّ قـــتـــوده
على مثلثٍ يَدمى من الحُقبِ حاجبُه

غـيـورٍ على أصـحـابه لا يرومُـه
خليطٌ ولا يـرجو سواهُ صواحـبُـهْ

إذا مـا رعى سنين حاول مسـحلاً
يجـدُّ به تعـذامُـهُ ويلاعـبُـهْ

أقـبَّ نـفـى أبـنـاءَه عـن بـنـاتِـهِ
بذي الرَّضمِ حـتى مـا تُحسُّ توالبُـهْ

رعى ورعينَ الرَّطبَ تسـعينَ ليلةً
على أبقٍ والروضُ تجـري مذانبُـهْ

فلمّا تولّى الحَرُّ واعتصر الثَّرى
لظى الصيفِ من نجمٍ توقَّدَ لاهبُـهْ

وطارتْ عصافيرُ الشقائقِ واكتسى
من الآلِ أمثالَ المُلاءِ مساربُهْ

وصدَّ عن الشَّولِ القريعُ وأقفرَتْ
ذُرى الصَّمدِ مما استودعتْهُ مواهبُهْ

ولاذَ المَها بالظِّلِّ واستوفضَ السَّفا
منَ الصَّيفِ نآجٌ تخُبُّ مواكبُهْ

غدتْ عانة تشكو بأبصارِها الصَّدى
إلى الجأبِ لا أنها لا تُخاطبُهْ

وظلَّ على عليـاءَ يَقسمُ أمرَهُ
أيمضي لوردٍ باكرٍ أم يؤاوبُهْ

فلما بدا وجهُ الزماعِ وراعه
من الليلِ وجهٌ يمَّمَ الماءَ قاربُهْ

فباتَ وقد أخفى الظلامُ شُخوصَها
يُناهبُها أمَّ الهُدى وتناهبُهْ

إذا رقصَتْ في مهمهِ الليل ضمَّها
إلى نهجٍ مثل المجرةِ لاحبُهْ

إلى أن أصابتْ في الغطاطِ شريعةً
من الماءِ بالأهوالِ حُفَّتْ جوانبُهْ

لها صخبُ المستوفضاتِ على الولى
كما صخبتْ في يومِ قيظٍ جنادبُهْ

فأقبلَها عرضَ السريَّ وعينُهُ
ترودُ وفي الناموسِ منْ هوَ راقِبُهْ

أخو صيغةٍ زوقٍ وصفراءَ سمحةٍ
يُجاذبُها مستحصدٌ وتُجاذبُهْ

إذا رزمت أنَّتْ وأنّ لها الصدى
أنينَ المريضِ للمريضِ يجاوبُهْ

كأنّ الغنى آلى يميناً غليظةً
عليه خلا ما قرّبت لا يقاربُهْ

يؤولُ إلى أمٍّ ابنتين يؤودُهُ
إذا ما أتاها مخفقاً أو تُصاخبُهْ

فلمَّا تدلَّى في السَّريِّ وغرَّهُ
غليلُ الحَشا منْ قانصٍ لا يواثِبُهْ

رمى فأمرَّ السهمَ يمسحُ بطنهُ
ولبّاتِهِ فانصاعَ والموتُ كاربُهْ

ووافقَ أحجاراً رَدَعنَ نضيَّهُ
فأصبحَ منها عامداهُ وشاخبُهْ

يخافُ المنايا إن تَرَحَّلتُ صاحبي
كأنّ المنايا في المقامِ تُناسبُه

فقلتُ له: إنّ العراقَ مُقامُهُ
وخيمٌ إذا هبَّتْ عليك جَنائبُهْ

لعلك تستدني بسيركَ في الدُّجى
أخا ثقةٍ تُجدي عليكَ مناقبُهْ

من الحيِّ قيس قيس عيلانَ إنّهم
عيونُ الندى منهم تُرَوَّى سحائبُهْ

إذا المُجحدُ المحرومُ ضمَّت حبالَه
حبائلُهم سيقَتْ إليه رغائبُهْ

ويومٍ عبوريٍّ طغا أو طغا به
لظاهُ فما يروى من الماءِ شاربُهْ

رفعتُ به رَحلي على متخطرفٍ
يزفُّ وقد أوفى على الجذلِ راكبُهْ

وأغبرَ رقاصِ الشُّخوصِ مضلةٍ
مواردُهُ مجهولةٌ وسباسبُهْ

لألقى بني عيلانَ، إنّ فعالهُم
تزيدُ على كلِّ الفعالِ مراتبُهْ

أُلاكَ الأُلى شقُّوا العمى بسيوفِهم
عن الغيِّ حتى أبصرَ الحقَّ طالبُهْ

إذا ركبوا بالمشرفيَّة والقنا
وأصبحَ مروانٌ تعدُّ مواكبُهْ

فأيُّ امرئٍ عاصٍ وأيُّ قبيلةٍ
وأرعنَ لا تبكي عليه قرائبُهْ

وسـامٍ لمروانٍ ومنْ دونه الشَّـجـا
وهولٌ كلُجِّ البحرِ جاشتْ غواربُهْ

أحلَّتْ بـه أُمُّ المنـايا بـنـاتِهـــا
بأسـيـافِنا، إنّا رَدى منْ نُحـاربُهْ

ومـا زالَ منا مُـمـسِكٌ بمدينةٍ
يُراقبُ أو ثغـرٍ تخـافُ مـرازبُـهْ

إذا الملكُ الجـبَّـارُ صَـعَّـر حـدَّهُ
مشينا إليـه بالسيـوفِ نُعـاتبُـهْ

فراحـوا فـريقـاً في الإسار ومـثلُهُ
قـتـيـلٌ ومـثـلٌ لاذَ بالبـحـرِ هاربُهْ

وأرعنَ يَغشى الشمسَ لونُ حـديدِهِ
وتخلسُ أبصـارَ الكُماةِ كـتـائبُـهْ

تَغَصُّ به الأرضُ الفَضاءُ إذا غدا
تُزاحِمُ أركـانَ الجـبـالِ مناكـبُـهْ

كـأنّ جـنـاباويه مـنْ حـمسِ الـوغى
شـمـامٌ وسلمى أو أجـا وكـواكـبُـهْ

تركنا به كلبـاً وقـحطانَ تبـتـغي
مُجيراً من القتلِ المُطلِّ مقانبهْ

أباحت دمـشقـاً خـيلُنا حين أُلجـمَتْ
وآبت بهـا مـغـرورَ حـمـصٍ نوائبُـهْ

ونالت فلسطيناً فعـرَّدَ جـمـعُـهـا
عن العـارضِ المستنِّ بالموتِ حـاصـبُـهْ

وقـــد نـزلتْ منّا بـتـــدمـــرَ نوبةٌ
كذاك عُـروضُ الشرِّ تعـرو نوائبُـهْ

تعـــودُ بنفسٍ لا تـزلُّ عن الهُـدى
كـــمـــا زاغ عنه ثابتٌ وأقـــاربُـهْ

دعـا ابـن سـمـاكٍ للغـواية ثابتٌ
جـهـاراً ولم تُـرشـدْ بنيـه تجـاربُـهْ

وادى سعيداً فاستصبَّ من الشَّقا
ذنوباً كـمـا صُـبَّت عليـه ذنائبُـه

ومنْ عجبٍ سعيُ ابنِ أغنمَ فيهمُ
وعثـمـانَ، إنّ الدهرَ جَمٌّ عـجـائبُـهْ

ومـا منهـمـا إلا وطارَ بشـخـصِـهِ
نجـيبٌ وطارتْ للكلابِ رَواجـبُـهْ

أمـرنا بهم صـدرَ النهـارِ فـصُلِّبـوا
وأمسى حميدٌ يَنحتُ الجذعَ صالبُـهْ

وناطَ ابن رَوحٍ للجـمـــاعـــةِ إنّه
زأرنا إليـه فـاقـشـعـرتْ ذوائبُـهْ

وبالكوفـةِ الحُبلى جَلَبْنا بخـيلِنا
عليـهمْ رعـيلَ الموتِ إنّا جـوالبُـه

obeikandl.com

أقـــمْنا على هذا وذاكَ نســـاءَهُ
مـــآتِمَ تدعـــو للبُكا فـــتُـــجـــاوبُهْ

أيامى وزوجـــاتٍ كـــأنّ نهـــاءها
على الحُـــــزنِ آرامُ المَلا وربَاربُهْ

بكين على مـــثلِ السِّنانِ أصـــابَهُ
حـــمـــامٌ بأيدينا فـــهـنَّ نوادبُهْ

فلمّا اشتفينا بالخليفةِ منهمو
وصـالَ بنا حـتى تقـضَّت مـآربُهْ

دلفنا إلى الضَّحاكِ نصرفُ بالرَّدى
ومـروانُ تدمى منْ جُذامَ مخالبُهْ

مُعدِّين ضرغاماً وأسـودَ سالخاً
حُـتـوفـاً لمن دَبَّت إلينا عـقـاربُهْ

وما أصبحَ الضَّحاكُ إلا كثابتٍ
عـصـانا فـأرسَلْنا المنيَّـةَ تادبُهْ

❀ ❀ ❀

obeikandl.com